تدبر
سورة الكوثر

إعداد :
د. حاكم بن قاسم الحاكم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــة

الحمد لله الذي حفظ كتابه من التحريف والتبديل، وأغنى المسلمين بشريعته عن الاحتياج إلى ما في التوراة والإنجيل، والصلاة والسلام على نبينا محمد الهادي إلى سواء السبيل، وعلى آله وأصحابه الكرام الذين كانوا أهل عناية وأمانة، وحفظٍ ودراية. **أمَّا بعدُ:**

فلقد حظي القرآن الكريم على مر العصور باهتمام كبيرٍ لا يدانيه اهتمام، وعناية فائقة لا تعادلها عناية، فقد دأب علماء الأمة على ذلك، فألفوا فيه المؤلفات سواء في التفسير أو في أو المناسبات أو الهدايات أو في التدبر.

ولا شك أن أعظم العلوم والمعارف هي آيات القرآن العظيم وما يتعلق بها من الفهم والاستنباط والتدبر.

وسيكون حديثنا في هذه الورقات عن (**تدبر سورة الكوثر**)، وما فيها من الملح واللطائف والنكات البلاغية.

هذه السورة العظيمة التي قال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بقوله: سورة الكوثر ما أجلها من سورة وأغزر فوائدها على اختصارها وحقيقة معناها تعلم من آخرها.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾[الكوثر: ١ -٣].

أولاً: المعلومات التي تأتي قبل التفسير:

- **مناسبة السورة لما قبلها:** " ولما ذكر في سورة الماعون- وصف المنافق بالبخل وترك الصلاة والرياء ومنع الزكاة، قابل في هذه السورة البخل بـ ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾ [الكوثر: ١]، والسهو في الصلاة بقوله: ﴿ **فَصَلِّ** ﴾، والرياء بقوله: ﴿ **فَصَلِّ** ﴾، ومنع الزكاة بقوله:﴿ **وَانْحَرْ**﴾؛ أراد: تصدق بلحم الأضاحي، فقابل أربعا بأربع" [البحر المحيط لأبي حيان: ١٠/٥٥٥].

وهذا الذي ذكره أبو حيان رحمه الله (ت:٧٤٥هـ) من ملح التفسير، وغالب علم المناسبات من باب الملح واللطائف؛ لأن معرفتها لا تؤثر بالتفسير، وفقدها لا ينقص من معرفته.

- **ما يتعلق بتسمية السورة، ومكيتها أو مدنيتها، وعدد الآيات، وأغراض السورة وهذا كله من علوم القرآن:**

- **التسمية:** تسمى سورة الكوثر، وعنونها البخاري في صحيحه سورة " إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ" وتسمى سورة النحر.[التحرير والتنوير (٣٠/٥٧١)].

- **مكيتها أو مدنيتها:** مكية عند الجمهور واقتصر عليه أكثر المفسرين، وقيل أنها مدنية وهو الأظهر [التحرير والتنوير (٣٠/٥٧١)].

- **عدد آيها:** ثلاث بالاتفاق، وهي أقصر سور القرآن عدد كلمات وعدد حروف، [التحرير والتنوير (٣٠/٥٧١)].

- **أغراض السورة:** اشتملت على بشارة النبي ﷺ بأنه أُعطي الخير الكثير في الدنيا والآخرة، وأمره بأن يشكر الله على ذلك بالإقبال على العبادة.[التحرير والتنوير (٣٠/٥٧١)].

فضل السورة: عن أنس رضي الله عنه، قال:((بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه متبسما، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: «أنزلت علي آنفا سورة» فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ (٢) إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (٣)﴾[الكوثر: ٢] ثم

قال: «أتدرون ما الكوثر؟» فقلنا الله ورسوله أعلم، قال: "فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد النجوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب، إنه من أمتي فيقول: ما تدري ما أحدثت بعدك". [أخرجه مسلم في صحيحه (١/ ٣٠٠)، رقم (٤٠٠)].

- **مقاصد السورة**: الامتنان على النبي ﷺ بالعطاء والخير الكثير الذي خُص به. وتسلية له وتأييداً، وتوجيهاً للشكر، ورداً وتوعداً للمفترين عليه.[مقاصد سور المفصل (ص ٢٦)].

وهذا كله خارج عن حد التفسير؛ لأنه لا أثر له في بيان المعاني، وإن كان من العلوم المتعلقة بالآية مباشرة.

- **أحكام القرآن**: أشار القرطبي رحمه الله (ت: ٦٧١هـ): إلى عدة مسائل فقهية، وفصل في بعضها، وهذه المسائل تتعلق بأحكام الأضحية، . ووضع اليمين على الشمال في الصلاة، والموضع الذي توضع عليه اليد في الصلاة، وأحوال رفع اليدين [تفسير القرطبي (٢٠/ ٢٢٠)]، وكل هذا محله كتب الفقه، لا كتب التفسير.

ثانياً: التفسير:

يخبر ربنا تبارك وتعالى نبيه ﷺ عن هبته له ذلك النهر العظيم في الجنة، الذي اسمه الكوثر، وهو جزء من الخير الكثير الذي أعطاه إياه.

ثم أمره الله بأن يؤدي شكر هذه النعمة بأن تكون الصلاة والذبح له سبحانه لا كما يفعل المشركون الذين يذبحون للأصنام.

ثم أخبره أن مبغضه هو المنقطع عن كل خير، بخلافك أنت فيما أعطاك الله من الخير. [تفسير جزء عم لمساعد الطيار ص ٢٤٧-٢٤٨].

ثالثاً: التدبر في سورة الكوثر:

تدبر قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾[الكوثر:١].

- **سر افتتاح الكلام بحرف التأكيد (إنَّ):** للاهتمام بالخبر، والإشعار بأنه شيء عظيم، يستتبع الإشعار بتنويه شأن النبي ﷺ.[التحرير والتنوير(٣٠/٥٧٢)].
- **دلالة مجيء ضمير العظمة** في قوله:﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾: فيه تنبيه على عظمة العطية ؛ لأن الواهب هو جبار السموات والأرض.[مفاتيح الغيب للرازي:٣٢/٣١٠]
- **سر التعبير العطاء بالماضي** في قوله:﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾: إشارة إلى تحقق الوقوع.[روح المعاني:١٥/٤٨٠].
- **سر التعبير بالإعطاء دون الإيتاء:** إشارة إلى أن ذلك إيتاء على جهة التمليك فإن الإعطاء دونه كثيرا ما يستعمل في ذلك ومنه قوله تعالى لسليمان عليه السلام: ﴿هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ [ص: ٣٩] بعد قوله: ﴿هَبْ لِي مُلْكاً ﴾[ص: ٣٥]،[روح المعاني للألوسي: ١٥/٤٨٠].

- **قوله تعالى:** ﴿**إنا أعطيناك الكوثر**﴾، دل على أنه أعطاه الخير كله كاملاً موفراً وإن نال منه بعض أمته شيئا كان ذلك الذي ناله ببركة اتباعه. [مجموع الفتاوى: ١٦/٥٣٠].

- وفيه إشارة إلى أن المعطى وإن كان كثيرا في نفسه قليل بالنسبة إلى شأنه عليه الصلاة والسلام بناء على أن الإيتاء لا يستعمل إلّا في الشيء العظيم كقوله تعالى: ﴿**وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ**﴾[البقرة: ٢٥١]، ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا**﴾ [سبأ: ١٠]، ﴿**وآتَيْناكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾[الحجر: ٨٧]. والإعطاء يستعمل في القليل والكثير كما قال تعالى: ﴿**أَعْطى قَلِيلًا وَأَكْدى**﴾ [النجم: ٣٤] ففيه من تعظيمه عليه الصلاة والسلام ما فيه. [روح المعاني: ١٥/٤٨٠].

- الكلام مسوق مساق البشارة، وضمير العظمة مشعر بالامتنان بعطاء عظيم. [التحرير والتنوير (٣٠/٥٧٢)].

- **سبب ورود الضمير المتصل بالكاف بدل اسمه أو صفته ﷺ:** تبييناً لقربه ودرجته ﷺ العظمى ومقامه الكبير عند ربه، وكذلك ليستشعر كل قارئ أنه

معطى كذلك أو أن العطاء يشمله. [مجالس تدارس القرآن الفاتحة وقصار المفصل: ص٢٤٠].

- **سر إطلاق الكوثر دون قيد:** إشارة إلى أنه خير مطلق، يشمل الخير الكثير والنعم الدنيوية والأخروية من الفضائل والفواضل.
- **في قوله تعالى:** ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ إشارة إلى ظمه هذه العطية، إذ نسبها الله تعالى إلى نفسه والمآدب على قدر الأدب.
- فضل الله تعالى نبيه محمد ﷺ وخصه بأمور دون سائر الأنبياء ومن ذلك نهر الكوثر في الجنة.
- علينا اتباع سنة النبي ﷺ لنظفر بالورود على حوضه الذي يُمد من الكوثر.

تدبر قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾[الكوثر:٢].

- **في مجيء قوله تعالى:** ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ **بعد قوله تعالى:**﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾، تعليم للإنسان أن يتوجه لربه بالشكر على النعم والعطايا.
- **توجيه الأمر هنا بالصلاة بالأمر المباشر:**﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾،خلافاً لمعظم الآيات التي تأمر بالصلاة بلفظ:﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ أو ﴿ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾: لبناء هذه السورة على الإيجاز والاختصار فهي أقصر السور، ولأن المخاطب بهذا الأمر بلغ درجة عالية ومقاما متقدماً فصلاته مقامة على الوجه المطلوب. [مجالس تدارس القرآن الفاتحة وقصار المفصل (ص٢٤٠)].
- **سر العدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر في قوله:** ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾:
  - ✓ لأن وروده على طريق الالتفات من أمهات أبواب الفصاحة.[مفاتيح الغيب (٣٢/ ١٢٣)].
  - ✓ لأن صرف الكلام من المضمر إلى المظهر يوجب نوع عظمة ومهابة ومنه قول الخلفاء لمن يخاطبونهم يأمرك أمير المؤمنين وينهاك أمير المؤمنين.[مفاتيح الغيب (٣٢/ ١٢٣)].

✓ ولما في لفظ الرب من الإيماء إلى استحقاقه العبدة لأجل ربوبيته فضلاً عن فرط إنعامه. [التحرير والتنوير (٣٠/٥٧٤)].

- **سر إضافة الرب إلى ضمير المخاطب ﴿ لِرَبِّكَ ﴾:**

✓ لقصد تشريف النبي ﷺ وتقريبه.

✓ ولأن لفظ الرب يفيد التربية ويفيد الوعد الجميل في المستقبل أنه يربيه ولا يتركه.[التحرير والتنوير (٣٠/٥٧٤)].

- دلالة استخدام اللام في قوله: ﴿ لِرَبِّكَ﴾: تعريض بالمشركين بأنهم يصلون للأصنام بالسجود لها والطواف حولها.[التحرير والتنوير (٣٠/٥٧٤)].

- قوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ يدل على أهمية هاتين العبادتين: الصلاة والذبح وأنهما من أبرز ما يُشكر الله به على النعم.

- **سر تخصيص الصلاة والنحر بالذكر:**

✓ لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات.[تفسير السعدي (ص ٩٣٥)].

✓ لأن الصلاة تتضمن الخضوع في القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج

للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به.[تفسير السعدي (ص ٩٣٥)].

✓ لأن المشركين كانوا يصلون بالدعاء والتعظيم، ويتقربون بالقرابين للأوثان، فناسب ذلك البدء بتغيير هذه العادة الشركية بأن تكون صلاتنا وأنساكنا لله ربنا.[معارج التفكر (٦٥٨/١) بتصرف]

- **في ذكر الصلاة والنحر بعد الإشارة للعطاء الكثير**: توجهك إلى شكر النعمة بحقها وهو الإخلاص والتجرد لله في العبادة وفي الاتجاه.[في ظلال القرآن (٣٩٨٨/٦)].

- **سر ذكر النحر بعد الصلاة:**

✓ لأن الصلاة أعظم العبادات البدنية فقرن بها أعظم أنواع الضحايا.[مفاتيح الغيب (٣٢/ ١٢٣)].

✓ لأن الأبل أعز الأموال عند العرب فأمره بنحرها، وصرفها إلى طاعة الله تعالى تنبيهاً على قطع العلائق النفسانية عن لذات الدنيا وطيباتها.[مجالس تدارس القرآن (ص٢٤٣)].

✓ إشارة إلى أنك بعد فقرك تصير بحيث تنحر المائة من الإبل [مفاتيح الغيب (٣٢/ ١٢٣)].

✓ السورة مكية في أصح الأقوال وكان الأمر بالنحر جارياً مجرى البشارة بحصول الدولة وزوال الفقر والخوف.[مفاتيح الغيب (٣٢/ ١٢٣)].

- **سر ذكر النحر بدل الذبح:**

✓ لأن النحر يختص بالإبل، والذبح للبقر والغنم.

✓ لأن الإبل أنفع من غيرها بالنسبة للمساكين.[تفسير جزء عم لابن عثيمين (ص ٣٣٤)].

- لما ذكر الله منته على نبيه بالعطاء أمره بشكرها فقال:﴿ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾، وهو دليل على أن من أعظم صور الشكر العمل – عمل القلب وعمل الجوارح، ﴿ **اِعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً**﴾[سبأ: ١٣].
- في هذه السورة الأمر بالإخلاص لله عز وجل في الصلوات والنحر، وكذلك في سائر العبادات.[التحرير والتنوير (٣٠/٥٧٤)].

تدبر قوله تعالى: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾[الكوثر:٣].

- ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أي: مبغض النبي ﷺ أمره إلى زوال وعاقبته خسران ووبال.
- **من فوائد الالتفات** – أي من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب– في قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾ الدالة على أن ربك مستحق لذلك وأنت جدير بأن تعبده وتنحر له.[مجموع الفتاوى (١٦/٥٣٣)].
- أن الدعوة إلى الله لا يمكن أن تكون بتراء، ولا صاحبها أبتر، وكيف وهي موصولة بالله الحي الباقي؟ إنما يبتر الكفر والباطل وأهله مهما بدا أنه طويل الاجل ممتد الجذور.[في ظلال القرآن (٦/٣٩٨٩)].
- أن من أبغض الرسول عليه الصلاة والسلام، أو أبغض شيئاً من شريعته فإنه هو الأقطع الذي لا خير فيه ولا بركة فيه. [تفسير جزء عم لابن عثيمين (ص ٣٣٤)].
- من أبغض شريعة الرسول عليه الصلاة والسلام، أو أبغض شعيرة من شعائر الإسلام، أو أبغض أي طاعة مما يتعبد به الناس في دين الإسلام فإنه كافر، خارج

عن الدين لقول الله تعالى: ﴿**ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم**﴾ [محمد: ٩] [تفسير جزء عم لابن عثيمين (ص ٣٣٤)].

- بيان شؤم عاقبة كل من عادى الرسول ﷺ.
- بيان مكانة النبي ﷺ وعظيم شأنه عند ربه ؛ إذ تولى الله تعالى بنفسه الدفاع عنه وأكرمه غاية الإكرام.
- مقياس الذكر بعد الممات ليس بكثرة الأولاد وإنما بما للإنسان من أعمال صالحة، وآثار طيبه يرفعه الله تعالى بها.[مجالس تدارس القرآن (ص٢٤٣-٢٤٤)].
- **قال ابن تيمية**رحمه الله: حقيقة معناها تعلم من آخرها فإنه سبحانه وتعالى بتر شانئ رسوله من كل خير:
  - ✓ فيبتر ذكره وأهله وماله فيخسر ذلك في الآخرة.
  - ✓ ويبتر حياته فلا ينتفع بها ولا يتزود فيها صالحا لمعاده.
  - ✓ ويبتر قلبه فلا يعي الخير ولا يؤهله لمعرفته ومحبته والإيمان برسله.
  - ✓ ويبتر أعماله فلا يستعمله في طاعة ويبتره من الأنصار فلا يجد له ناصرا ولا عونا.

✓ ويبتره من جميع القرب والأعمال الصالحة فلا يذوق لها طعما ولا يجد لها حلاوة وإن باشرها بظاهره فقلبه شارد عنها.

وهذا جزاء من شنأ بعض ما جاء به الرسول ﷺ ورده لأجل هواه، أو متبوعه، أو شيخه، أو أميره، أو كبيره. [مجموع الفتاوى (١٦/٥٢٦)].

- ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ الحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئا مما جاء به الرسول ﷺ أو ترده لأجل هواك أو انتصارا لمذهبك أو لشيخك أو لأجل اشتغالك بالشهوات أو بالدنيا فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله. [مجموع الفتاوى ١٦/٥٢٩].

- ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ من آثر كلام الناس وعلومهم على القرآن والسنة فلولا أنه شانئ لما جاء به الرسول ما فعل ذلك حتى إن بعضهم لينسى القرآن بعد أن حفظه ويشتغل بقول فلان وفلان. [مجموع الفتاوى (١٦/٥٢٧)].

- ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ وصفه بكونه شانئاً كأنه تعالى يقول هذا الذي يبغضك لا يقدر على شيء آخر سوى أنه يبغضك والمبغض إذا عجز عن الإيذاء فحينئذ يحترق قلبه غيظاً وحسداً فتصير تلك العداوة من أعظم أسباب حصول المحنة لذلك العدو. [مفاتيح الغيب (٣٢/١٢٥)].

- **التسلسل العجيب لهذه السورة:** إذا أعطاك الله خيراً عظيماً – وأعظمه هذا الدين – وسخرك لدعوة الناس إليه وتعليمهم إياه، فتفرغ لعبادة ربك العبادة الشاملة، ولا تلتفت إلى ما يكيده خصومك لك من أذى حسي و معنوي، ولا تقلق بسبب ذلك، فعاقبتهم خسار وبوار: ﴿**إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**﴾.

والله أسأل التوفيق والإخلاص والسداد، والحمد لله رب العالمين.